وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠)

هو فيلسوف وسيكولوجي أمريكي من أهم رواد الحراك الأداتي في البرغماتية الأمريكية، والذي تحتفل الأكاديمية هناك بيوبيله الذهبي، فقد مضى على وفاته قرن كامل من الزمن، وما زالت أفكاره فعالة لا في المجتمعات الأمريكية فقط، بل تتداولها كل الأكاديميات المعرضة للعولمة في العالم المتقدم اليوم، وخلافاً لصديقه (بيرس) الذي أخذ منه مصطلح البرغماتية، ترك الكثير من المؤلفات التي تدل على أفكاره التي سوف أستعرض الرئيسة منها التي توضح ما يعنيه هو بالبرغماتية.

ولعل فرادته هي في كونه التجريبي الذي رأى القبول بالتجربة الصوفية والمسيحية لأنها مفيدة تجريبياً

- أي أداتياً - معتبراً أن الحقيقة التي تكلم عليها الفلاسفة وربما يقصدها زميله (بيرس)، ليست سوى ذريعة (Expedient)، شأنها شأن التذرع بالحق حين السلوك، وكل من التذرع بالحقيقة والتذرع بالحق هما من أجل أداتية تؤدي إلى النجاح في الحياة، لذلك يجب مقاومة هذه الذرائع المثالية التي ترجع إلى أسباب نفسية تهدف إلى نجاح أداتي تنصب عليه كل إرادات الناس، فسمى فلسفة (بيرس) بالذرائعية.

وضمن هذه الأطر (الواقعية) التي ادعاها، كتب كتابه الشهير بعنوان (البرغماتية Pragmatism)[1]، وأهداه إلى (جون ستيوارت مل) التجريبي النفعي (Utilitarian) الشهير الذي يرجع إليه الفضل في تعلم البرغماتية منه، منكراً على (بيرس) هذا الأمر في أول كتابه بصورة مبطنة لكونه ذرائعياً في برغماتيته حسب زعمه.

(1) William James, pragmatism, Longmans Green and Co, N.Y 1940.

والكتاب عبارة عن محاضرات ألقيت بين عامي (١٩٠٦ - ١٩٠٧م)، قال فيها إنه حاول «من خلالها توحيد صورة البرغماتية كما بدت له»[١]، معتبراً أن البرغماتية هي اسم جديد لطرائق قديمة في التفكير، لكي يعطيها عمقاً في تاريخ الفلسفة، خاصة أن طرحه للبرغماتية يرتكز على النفعية إن لم يكن فيها الكثير من (الميكيافيلية)، وعمق النفعية يرجع إلى (أبيقور Epicurus) حيث هدف الحياة تقليل آلامها، أو «المبدأ الذي يؤمّن أكبر قدر ممكن من السعادة»[٢].

فإذا كانت السعادة مرتبطة بالمنفعة، فهي مرتبطة بما لا يمكن الوثوق به؛ لأن ما ينفعني اليوم قد يضرني غداً ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦]، لأن كل

(1) Ibid, Pvii.

(2) John Stuart Mill, Utilitarianism, Bantam Books, N.Y 1993, P144.

شيء مرتبط بكل شيء برباط العقل الكلي أي (اللوغوس) الذي أكده الإغريق، وتؤكده العلوم الحديثة، فعلوم الفضاء وكل العلوم، كما يقول (جيمس) - عن حق - تؤثر في كل الأمور[١]، فكيف يستطيع الإنسان تحديد ما ينفعه أو ما يضره ضمن هذا الزحام، ما لم يكن عالماً بكل شيء في الوجود الأنطولوجي والكوزمولوجي أيضاً، وتلك من صفات الله لا الإنسان؟!

هكذا تهمنا الفلسفة بفتح آفاقنا على حدود معارفنا على الأقل، لكي لا نقع بالادعاء والغرور بأن منفعتنا فيما نظنه ينفعنا، ومن ثم فلا يكفي أن نرغب في السعادة حتى نحصل عليها كما ادعى (ميل)[٢].

ويدعي (جيمس) أن المزاج الدوغمائي هو سمة

(1) Pragmatism, op. cit, p3.

(2) Utilitarianism, op, cit, p181.

الفكر العقلاني دون تجريبية تؤيده[١]، لذلك يتحيز إلى الفلسفة التجريبية لأنها تثبت أن العالم الذي نعيش فيه واحدي ومتعدد في الوقت ذاته[٢]، لأجل أن يتساءل عن الفلسفة التي تؤمن حاجات متبنيها، وطبعاً مثل هذه الفلسفة «يجب أن تقبل حقائق وقائع (Facts) الدارونية»[٣] برأيه، من أجل أن نعتاد على ضرورة حسم الصراع بين العلم والدين، لكي يكون الإنسان إيجابياً في «صِلاته مع العالم الفعلي الذي يعيش به»[٤]، ولكي نخلص من تناقضات المواقف والآراء، وهجران رجال العلم للميتافيزياء[٥].

ولأن الناس - حسب رأيه - هم الأدرى بما يريدون عملياً، لا كما في ظلال التفلسف، ولأنهم لن يتركوا

---

(1) Pragmatism, غامزاً من قناة بيرس.

(2) Ibid, p13.

(3) Ibid, p18.

(4) Ibid, p20.

(5) Ibid, p23.

الدين من أجل علوم ناقصة ما زالت بطور التشكل، يدعي (جيمس) أن «بإمكانه أن يبقى متديناً مثل الفلاسفة العقلانيين، مع بقائه على صلة قوية مع الوقائع الجديدة الثرية للعلم»[١]، وهذا ما تفعله الفلسفة البرغماتية برأيه، حين توحد بين الأداتية والتجريبية.

ولأن المنهج البرغماتي هو قبل كل شيء منهج تقريب وجهات النظر الميتافيزيائية التي حولها خلافات، وذلك «بمتابعة كل فكرة فيها من خلال نتائجها العملية (Practical)»[٢].

اعتبر (بيرس) أن (جيمس) هو أساس الخلط بين: (Pragma) و(Praktikos)، فجيمس براكتيكالي (Practical) أداتي، في حين أن (بيرس) وضع كل فلسفته البرغماتية (Pragmatism) لمحاربة هذه الأداتية، والأسوأ من هذا

(1) Ibid, p33.

(2) Ibid, p45.

ادعاء (جيمس) أن المبدأ الأساسي في فلسفة (بيرس) هو «إدراك الغايات العملية لأي موضوع يعانيه ما دام للمفهوم الناتج عن هذا الإدراك نتائج إيجابية، وهذا هو مبدأ فلسفة (بيرس)... حتى أوضحت أنا - يعني (جيمس) - أمام جامعة (كاليفورنيا)، إمكان تطبيق هذا الأمر على الدين»[١]؟!

ليؤكد ثانية أن «معنى الواقع بتأثيره في مدى ممارستنا له، فهو الذي يؤثر في معناه عندنا»[٢].

فالممارسة هي التي تعطي الوجود معناه لكل فرد بما يسمى بخبراته الشخصية، وهو ما أكده بعد ذلك (سارتر) بقوله: «إن الوجود قابل للفهم الذاتي (Knowable) ولكن هذا لا يعني أنه معقولٌ»[٣] دون ذاتية

(1) Ibid, p47.

(2) Ibid, p48.

(3) Jean paul sartre, Truth and Existence, Univnersity of Chicago press, 1992, p16.

تفسره، فرفض (سارتر) أن يعطي من يسأله رأيه عن بقائه بجانب والدته أو الالتحاق بالمقاومة ضد النازية في فرنسا جواباً، لأنه «كان يعرف مسبقاً جوابي.. أنت حر فاختر نفسك»[١] بمعنى فسّر أنت وجودك، من خلال معاني الواقع التي استخلصتها أنت منه؟ وما (الترقب) و(الغثيان) عند (سارتر) إلا مشاعر تنتج عن الخوف من إخفاق مثل هذا التفسير، وبهما الفرق بين النجاح والإخفاق؟!

وكذلك برغماتية (جيمس) بهذا المعنى هي حض المزاج (Temperament) الفلسفي عند كل إنسان، لأن يكون تجريبياً في تفسيراته لمعنى وجوده «لذلك يدير البرغماتي ظهره لكل تجريد غير كاف من خلال الحلول اللفظية... نحو المشخصات الواقعية بالوقائع

(١) جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٣، ص٦٠.

(Facts)، التي توجهه نحو الفعل والقوة»[١]. فهل هذه إرادة القوة من خلال إرادة الاعتقاد؟!.

اللافت للنظر عند برغماتية (جيمس) هذه ربطه الشديد بين القوة والاعتقاد، من منطلق أن الاعتقاد ما كان ليكون في نهاية مطافه إلا لتحصيل القوة، يقول: «إن ردود الفعل بالكره والقتال ما زالت تلاقي مطلباً.. فالمعاناة والقسوة لم يلغيا حب الحياة.. بل على العكس أعطياها نكهة خاصة.. فالذي يثيرنا ويحركنا ويلهمنا هو لحظات النصر.. فألمانيا تحت أقدام (بونبارت) أنتجت أكثر آدابها تفاؤلاً.. وتاريخ نوعنا البشري كناية عن تعليق ممتد من البهجة التي تصاحب الآلام»[٢].

وإني لأسأل عن الفرق بين هذا القول وقول (نيتشه)

(1) Pragmatism, op. cit, p51.

(2) William James, The will to Believe, Longmans Green and co, N.Y 1897, p47.

حول رأس الأدب الألماني غوته «لقد فتح (غوته) قلبه لظاهرة (نابليون)، وأغلقه في الوقت ذاته ضد (حرب التحرير)، منه»[١]، وإذا سأل القارئ لماذا ذلك؟ كان جواب نيتشه: «على الإنسان أن يفرض حقه، وإلا فلن يستفيد من الحق، لذلك كان اليهود ديالكتيكيين... حتى سقراط كان ديالكتيكياً»[٢]، ولماذا اليهود كذلك؟ «لأن عليهم أن يواجهوا السؤال دوماً بأن يبقوا أو لا يبقوا، لذلك اختاروا البقاء.. بأي ثمن»[٣]، فهدف إرادة الاعتقاد هو إرادة القوة والسيطرة، وإلا «ماذا تعني حلبات الصراع الرومانية وما بها من قسوة، تنتج متعة، والمسيحية بآلام الصليب، والإسبان بمشاهدة حرق الهراطقة.. والفرس بثوراتهم الدموية؟.. الهدف

(1) Nietzsche, Twilight of the idols, penguin books, N.y1990, p77.

(2) Ibid, p42.

(3) Ibid, p146.

من القوة إرادة القوة»[١]، وإذ يتنبأ (نيتشه) - أو يستقرئ - بأن القرن القادم سواء عنى به القرن العشرين أو الواحد والعشرين «سيجلب معه صراع السيطرة حول كل العالم»[٢]، يقول جيمس: «إن تاريخ جنسنا البشري كناية عن تعليقات طويلة على الفرح الذي فيه حروب شريرة»[٣].

الفرق بين المفكرين هو أن (جيمس) أراد من خلال أداتيته أن لا يتصدى للدين، بل أراد استخدامه فيما يخدم لاأداتيته البرغماتية فقط، بجعل الجانب الأخلاقي - الضمير - عند الناس يخدم هذه الأداتية تجريبياً وواقعياً، بل ليضع حداً للصراع بين العلم مع الفلسفة من جهة، والدين المسيحي من جهة أخرى،

(1) Nietzsche, Beyond Good and Evil, Penguin books, N.Y 1990, p159.

(2) Ibid, p138.

(3) The will to believe, op. cit, p47.

غامزاً من الدين المسيحي كما فعل حين ذكرنا بجرائم البابا (Innocent viii) باستمتاعه بالمحارق التفتيشية ضد خصومه والمسلمين، منذ أول تأسيس محاكم التفتيش في إسبانيا عام (١٤٨٥م)[١] مع تراجع قوة المسلمين فيها، فلولا تراجع قوة المسلمين آنذاك، لما تجرأت إرادة الاعتقاد (التفتيشية) الباطلة على القيام بشرورها، التي تدل على أن غاية الاعتقاد وسبيله هي القوة؟!

إرادة الاعتقاد بهذا المعنى تمويه لإرادة القوة، ما زالت البرغماتية تمارسه إلى اليوم، بما يسمى بالعولمة ضد كل قيم شعوب العالم الأخرى، فكيف سوّغ (جيمس) هذا الأمر الذي سمح لليهود من خلاله بالتسلل إلى صلب البرغماتية الأمريكية، واستخدامها من أجل مصالحهم بعد ذلك، مثل استخدام الطغاة الشرقيين الكسالى لخدامهم الآريين الأكثر كدحاً بطبيعتهم؟.

---

(1) Ibid, p47.

وطبيعي أن يعرف بدو المدن الذين كانوا يجوبون بين هؤلاء المتغلبين؛ أعني اليهود، ما كان يتداول في قصور هؤلاء الطغاة عن القيان والجواري من صفات، كانت تنسب إلى الأقوام، وهي كما نعرف اليوم عرقية بحتة، (كما ذكر أبو الفرج في كتاب النساء قال: قال عبد الملك بن مروان: من أراد الخدمة فعليه بالروميات، والنجابة بالفارسيات)[1] وكلاهما من العرق الآري.

وهذا ما رأيناه باقياً في الخافية اليهودية بتسخير الأمريكيين البيض لإنجاز ما لا يستطيعون إنجازه، في المجالات خارج (الربا) واستعبادهم في مراكز المال (Wall Street)، وذلك بإمدادهم بكل تقنيات الحرب التي لا يحسنون فيها قتالاً إلا من وراء حجاب، ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم

(١) محمد التيجاني، تحفة العروس، رياض الريس، لندن وقبرص ١٩٩٢م، ص١٧٤.

بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٤].

وحجابهم (جدر) تقنية المدرعات الأمريكية، والحائط الذي بنوه ليفصلهم عن القتال بفلسطين وجهاً لوجه.

فخافية الشعوب في تقييم بعضها لبعض وراثية بكل معنى الكلمة، والأرض التي نشأت منها هذه الشعوب هي التي تحدد ثمرات تعاطي أفرادها مع الأمم الأخرى[1]، يقول نيتشه: «انظر إلى أحفاد أحفاد الأحفاد يصبحون مع مرور القرون أقوى بتجسد قوة الوجود الجينية فيهم (Atavism)»[2].

وهكذا «يصبح الخير عندهم اتجاهاً سيئاً إذا لم

(١) إذ لا ثمرة دون مكان كانت قد نبتت فيه، من تربته نعرفها، ولعل هذا هو المقصود من قول المسيح عليه السلام: «من الثمر تعرف الشجرة.. بكلامك تتبرر وبكلامك تدان» [متى: ١٢/ ٣٥]، مادام أنه لا توجد شجرة بمعزل عن تربتها، ومناخ هذه التربة.

(2) Nietzsche, The Gay Science, Dover pub INC, N.Y2006, p25.

يكن موجهاً لإرادة القوة فيهم ليقوموا بدور الطغاة»[١]، ويقول (وليم جيمس): «يحوي الكائن الحي حتماً معه بصورة دائمة ليس مجرد تاريخ وجوده الفردي، بل تاريخ وجود كل أسلافه»[٢].

هذا التطابق بين أفكار (جيمس) و(نيتشه) على اختلاف ما يدعوان إليه، راجعٌ قبل كل شيء إلى تنكر (جيمس) للمبدأ الأساسي الذي وضعه (بيرس) للبرغماتية؛ بأن لا تخالف نتائج اليقين العلمي في مطابقتها للوقائع (Facts) ، إذ إن (جيمس) حين أراد أن يسوغ للدين ذي الأسس اليهودية خالف هذه النتائج، وأكثر من ذلك سمى مخالفته هذه وسوّغها بحرية إرادة الاعتقاد، التي ظن أنها تشكل عامل حماية تجريبياً فعلياً - أداتياً - لمجتمعاته الأمريكية، التي ليس من مصلحتها تكرار الحروب الدينية

(1) Beyond Good and Evil, op. cit, p119.

(2) The Will To Believe, op. cit, p231.

الأوربية في القارة الجديدة، وقد كان هذا حلًّا جيداً في وقته مع أنه يخفي حقيقة كون النهاية التي تنشدها إرادة الاعتقاد، سوف تؤدي إلى إرادة القوة، تلك التي سمحت بعد موت (جيمس) بأقل من خمسين سنة بجلب طفيلي أخطر من كل الحروب الدينية الأوربية، ليركب على رقبة الشعب الأمريكي؛ أعني اليهود المؤيدين بعد ذلك للصهيونية، عرقية دينية تخالف كل انفتاح ديني أمريكي برغماتي بإرادة الاعتقاد كما تشاء.

فالفرق بين (نيتشه) و(جيمس) هو تطرف (نيتشه) في حب الحقيقة، بمعزل عن أي فائدة منها، فهاجم الأخلاق السامية الدينية اليهودية، في حين كان هدف (جيمس) حتى قبل سيطرة الهجرات اليهودية على مراكز القرار الأمريكية الاستفادة من الدين، حتى لو خالف مبدأ (بيرس) صديقه اللدود منشئ مصطلح البرغماتية، متذرعاً بأنه «قد أثبتت التجربة أنه لا يمكن

لطبيعتنا الفكرية - العقلانية - أن تغير قناعاتنا»[١] لأن الإيمان، ووحده «الإيمان بالواقعة هو الذي يساعد في صناعتها»[٢]، فما تريده من نفسك يكون، وما تريده من الآخر يكون!!

أي إن الإرادة القوية هي التي تصنع القناعات، خاصة إذا جاءت من رجال أقوياء، وهذا هو أساس قوة الإرادة في مجال العقائد، فإذا كان هذا صحيحاً فالإرادة كما رآها (شوبنهور) ثم (نيتشه) هي (نومن) الوجود الذي بحث عنه (كانط)، وما حصرُها بالاعتقاد فقط سوى (ذريعة) لهدف آخر وهو تحديداً: الدفاع عن سخف (التلمود) الذي دمرته كل الاتجاهات والوقائع المنطقية والعلمية.

وحين شعر (جيمس) بذرائعيته هذه ذات الأصول الأداتية، نعت (بيرس) بها، فشاعت حول كل

(1) Ibid, p25.

(2) Ibid, p25.

البرغماتية، لذلك أكد في كتابه البرغماتية أن المزاج (Temperament) هو الذي يصنع الفلسفات المختلفة، وهذا يعني أن المزاج الأداتي الأمريكي الذي يؤكد أن «كل إنسان عادي.. يريد العلم والوقائع Facts، يريد الدين أيضاً»[١]، ومسايرة لهذا التوجه (التلمودي)، ذهب إلى الادعاء بأن البرغماتية في أساسها تجريبية نفعية برغماتية؟!

فإذا أضاف إليها الصفة (التلمودية) صارت مقبولة من كل المجتمعات (اليهودومسيحية)، وهذا ما حصل، مؤكداً أن «(ديوي) و(شيلر) ذهبا إلى تعميم هذا.. الزواج بين أجزاء الخبرات المختلفة بصيغة جديدة»[٢]، لذلك ذهب في إهداء كتابه إلى (ميل) على أساس أن البرغماتية هي نفعية أيضاً.

فالحقيقة برأيه يجب أن تكون صلتنا مع الواقع،

(1) Pragmatism, op. cit, p15.

(2) Ibid, p64.

فهي ليست نفعية إلا إذا كان الواقع كذلك، ولأنه كذلك «يتهمنا العقلانيون بأننا نتنكر للحقيقة»[١]، وهو حين قال هذا لم يكن يعرف أن التجريبية مع (رسل) سوف تدينه بالاتهام نفسه، إذ كيف يمكن لهذا المزيج المتناقض من الميتافيزياء والفلسفات المختلفة أن يكون على تآلف مع الدين المسيحي، الذي نعته (نيتشه) فيلسوف إرادة القوة بأنه «نشأ من جذور يهودية.. وهو يمثل ضدية مع... كل ما هو آري»[٢]، أي مع كل ما هو علمي منطقي[٣]؟ وهذا ما أراد أن يسقيه (جيمس) للناس بكثير من القطر والعسل ليخفي زقومه المر القاسي، بين خليط المعتقدات الأمريكية فاستساغت العولمة اليوم طعمه، وذلك في كتابه:

(1) Ibid, p68.

(2) Twilight of the Idols, op. cit, p69

(٣) انظر كتابنا: الإسلام ليس إيديولوجيا، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٩م، ص٨٣-١٠٥.

(اختلاف التجارب الدينية)[١] الذي نتج عن مجموعة محاضرات قدمها (جيمس) في جامعة (أدنبره) عام ١٩٠٢م.

وباعتباره متخصصاً بالطب وعلم النفس في بداية حياته العملية، فقد بدأ الكتاب بصلة الدين بعلم الأعصاب و(الأنثروبولوجيا)، بين وقائعهما والقيم الأخلاقية، معتبراً الدين البدائي ذهاناً عصبياً (Neurotic) حين ينقد المادية التي يمارسها الطب، في حين أن كل الأنظمة الدينية تتضمن ضبط التناغم بين الوحي والخبرة[٢]، مؤكداً أنه «لا توجد أي حالة عقلية عند الإنسان مشرقة أو مكتئبة، صحية أو غير سوية، ليس لها أي أصل عضوي، كشرط أساسي لها»[٣].

ويتساءل (جيمس) عن كيفية التمييز المسمى

(1) William James, The varieties of Religous Experience, the modern library, N.y 1902.

(2) Ibid, p5.

(3) Ibid, p15.

بالمستي (Mysticism) بين الوحي الإلهي والوحي الشيطاني، من منطلق أن الكابوس والإرادة والأوهام... تقدم خدمة مشابهة للاعتقاد الديني[١]، ومن منطلق أنه إذا كان هناك وحي من علٍ، فيجب أن تتلقاه الجملة العصبية الإنسانية، «فمؤسسو كل دين وجدوا قوتهم من واقعة الاتصال الشخصي مع الله، يسوع.. بوذا.. ومحمد ﷺ»[٢]، من منطلق أن «إدراك الله ينشأ من اعتباره - تعالى - أول مؤيس للوجود والقوة»[٣][٤].

---

(1) Ibid, p23.

(2) Ibid, p31.

(3) Ibid, p35.

(٤) التأييس بلغة العرب القديمة يعني: الوجود، كما نفهمه الآن. والتأييس أي فعل الإيجاد، ولا ينضوي تحته الخالق، فالله خالق الوجود والعدم، وليس بهما فلا يوصف بالوجود كما في الفكر المسيحي - توماس الأكويني مثلاً في براهينه على وجود الله- تلك البراهين التي تثبت تشخيص الله الذي ليس كمثله شيء، لذلك نلفت الانتباه إلى هذا الخطأ الشائع.

لكن تراجيديا الحياة واقعياً تثبت أن مؤيس الوجود من العدم، لا يبدي الكثير من الاهتمام بمتأيساته، فمنذ «(ماركوس أوريليوس) - أي الرواقية - ظهرت فلسفات أن الله لا يهتم لا بالإنسان ولا بنسله»[١].

ومن مثل هذا الشعور الإنساني العام الذاتي، والذي تكذبه كل النصوص الدينية، كتب (فولتير): «أن تؤمن يعني أن تصدق بدلالات واضحة، منها - بالنسبة إليّ - أن هناك موجداً ضرورياً للوجود، خالداً متعالياً، عاقلاً.. وهذه ليست مسألة إيمان، بل مسألة عقل»[٢]، لكن الدماء التي غطت الأرض بسبب محاكم التفتيش التي «قامت بالكثير من الشرور، وبأخذ هذا بعين الاعتبار، تُوجب علينا - على المسيحيين - التواضع حين الحديث عن أديان

(1) Ibid, p42.

(2) Voltaire, philosophical Dictionary, penguin Books, N.y 1972, p208.

أخرى»[١]، ويتساءل (فولتير) بسخرية: لماذا لم يمنع الخالق هذه المآسي؟!

يجيب (جيمس) عن مثل هذا السؤال بقوله: «لقد ارتبطت العبادة بكل العربدات من رقص وجنس وغناء.. فحيثما وجدت عبادة توجد إثارة تحدثها دوافعنا لنجد أن نتيجتها ليست التذمر من الألم الذي تحدثه.. بل الفرح بتمدد الإلهام الروحي، وهو التدين، نتيجة شوقنا إلى كل شيء لا نهاية له، لذلك بالألم نركب كل موجة»[٢] مهما كانت قاسية، وهذا هو أساس الشوق إلى المغامرات مهما كانت قاسية مؤلمة، وكأن بنا رغبة إلى المطلق لا يرويها سوى التدين الذي يحضنا على الأخطار.

لذلك كانت الحياة الدينية مليئة بالتضحيات لأن

(1) Ibid, p358.

(2) Varieties of Religious Experience, op. cit, p49.

«الدين يسهل ما هو حتمي بالضرورة»[١] أي آلام الحياة.

ولأن اللامرئي يشكل جزءاً من الواقع الفيزيقي الذي يحاصر محدودية حواسنا، نشعر بالألوهية حولنا من كل جانب، يقول (جيمس): «إن كل الكون حولنا يسبح.. بالجمال والقوة والتوازن.. وكل ما نعرفه يشارك في هذه الأفكار المجردة التي نلتقطها من خلال معانيها»[٢].

وخلافاً لبيرس في قواعد اليقين التي قررها، وسبق لنا عرضها يدعي (جيمس) أن «الشعور بالواقع الديني أقرب إلى الإحساس - الذوق - منه إلى العقل»[٣].

ولأن الشخصية الأمريكية حسب جيمس «تخضع للحقيقة الصارخة التي تحكمها - تحكم الشخصية

(1) Ibid, p51.

(2) Ibid, p56.

(3) Ibid, p64.

الأمريكية - وهي البحث عن الثمار العملية»[١]، فقد قدم (جيمس) لأمريكا كتابه المذكور (اختلاف التجربة - الخبرات - الدينية)، بعرضه لكل الفوائد التي يمكن للإنسان أن يجنيها من الدين، من خلال الصفة الشفائية للإيمان بأي أمر عبر تأثير الفكر في الجسد طبياً[٢]، وهكذا أعطى للدين أيضاً وظيفة أداتية نفعية، بالاستناد إلى بداية التجارب التي ترتكز اليوم على التبادل في القوى المؤثرة بين قشرة الدماغ (Cortex) من جهة، و(المهاد) وما تحته مثل (Cerebllum) من جهة أخرى، بتواصلها مع جهاز المناعة عند الإنسان كحقائق ووقائع (Facts) لها صلة بإرادة الحياة، ولا صلة لها بأي إرادة اعتقاد بمعزل عن إرادة القوة، مهما ادعى أن الإيمان هو إحدى طرائق الوصول إلى هذه النتائج.

(1) Ibid, p94.

(2) Ibid, p95.

إن الإيمان متصل باليقين الميتافيزيائي بالخلاص بعد الموت في الإسلام، من خلال قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤٦-٤٧]، وهنا يعني الموت والبعث بعده، لذلك شدد القرآن الكريم على ضرورة الخضوع لله وحده، وعبادته وحده إلى أن يأتي الإنسان الموتُ أي اليقين: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٩]، وبه فقط نصل إلى الحقيقة، أما قبل ذلك فكل تعريف لها مجرد تخرصات.

وإذ يخطئ (جيمس) علمياً حين يعتبر اللاشعور بما تحت الشعور (Subconscicus) هو الذي يجمع بين الدين وعلم النفس، بوصفهما قوتين خارج الوعي الإنساني[1]، ناسياً صلة الضمير بالأخلاق وصلة الأخلاق بالتخلقات الدينية، نراه ذرائعياً بكل معنى

(1) Ibid, p207.

الكلمة في هذا الطرح، إذ يعود لينتبه إلى معنى الأخلاق في الدين دون كبير التفات إلى مناقشة معنى الضمير[١].

وبغض النظر عن السفسطات الذرائعية في الأداتيات الأمريكية البرغماتية، فقد أثبت التاريخ بعد مؤسسيها، وما آلت إليه هذه الأداتيات اليوم أن محاولة الإقرار بكل الخلافات الدينية على أنها مفيدة ذرائعياً، جعل الهجرة اليهودية بعد الحربين الأولى والثانية إلى أمريكا مقبولة، ومرحباً بها، بين ظهراني مجتمعات مسيحية أوربية طبقية، فأضاف إلى مشكلات عدم التجانس مع الزنوج والأقليات العرقية الأخرى، مشكلة تعامل مجتمعات طبقية - ذات أصول غربية - مع مجتمع عصبي عشائري منغلق (ببارانويا) كونه شعب الله المختار، دفعت عشائريته إلى كل وسائل ابتزاز تلك الطبقية الأمريكية اقتصادياً وسياسياً،

(1) Ibid, p236.

بمؤازرتهم لكل عماء فاعليات قوة بدو المدن هؤلاء، إلى حد دخولهم في أعلى مناصب الدولة، مما أدى ويؤدي إلى عماء أشد (وقباً) بجر أمريكا إلى الحرب الثانية في أوربا، لقمع كل عداء سببه اليهود لأنفسهم هناك، وحين الظفر بما أرادوا من تدمير الإرادة المسيحية ضدهم في أوربا، وجهوا عملاق الإنجاز الأمريكي هذا نحو تدمير الإرادة الإسلامية للخلاص من اليهود.

هكذا تجر العصبية السامية اليهودية كل الإبداعات الأداتية الآرية الأمريكية، لا نحو إخضاع أوربا لعصبيتها العشائرية فقط، ولا عكس الإرادة المسيحية ثم الإسلامية الآن ضدها، بل لكسر إرادة كل العالم، مع انتشار المناخ البرغماتي فيه، وهو نصر لم يحققه أي دهاء عصبي سابق.

فعلى الرغم من أن الشيوعية صناعة يهودية فرضت مع مؤسسها (مردوش) اليهودي الذي سمي بعد ذلك

بماركس، (كولخوزات) على الاتحاد السوفياتي سابقاً، مثل (كيبوتزاتها) في إسرائيل، في أكبر دلالة أداتية ذرائعية لشيوعية القبائل الذين يعدون أسباط بني إسرائيل، التي - حين رأت في هشاشة الشيوعية ما لا يحقق نفعيتها - تخلت عنها، ووجهت طاقة الغرب ضدها، وهي تسعى اليوم إلى جعل العالم الإسلامي وريث مناهضة الشيوعية المنهارة، في الغرب، دون أي صلة للإسلام بالشيوعية الاشتراكية.

إن برغماتية أمثال (جيمس) وأتباعه سمحت من حيث لا تدري للصهيونية بكل هذه الامتيازات، والسبب بسيط بساطة كل تعقيد في تشكيل مذهب فلسفي يساير المناخات الشعبية، بخطئه المتعمد بصلب نظرية الحقيقة.

خطأ لا يمكن أن يتقبله أي فيلسوف جاد، بدءاً من زميل (جيمس) أعني (شارل ساندر بيرس) وانتهاء بأدق نقد فلسفي في تاريخ الفلسفة؛ أعني نقد (برتراند

رسل) للبرغماتية[١]، تأكيداً للصراع العالمي مع بزوغ فجر مناخ العولمة البرغماتية مع مطلع القرن العشرين، من ناحية صراع الأفكار نحو الانجرارات الأداتية الخطرة على الحضارة الغربية أولاً: من أمريكا، فالعولمة في كل دولة صناعية بالأداتية بفكر أو دون فكر، ثانياً: في توجيه الأداتية نحو عالمية النفعية البرغماتية بالعالم اليوم، وهو تأكيد بين واضح أن الحضارات لا يصنعها سوى صراع الأفكار، قبل صفق الحديد على الحديد، فمن تَلِنْ قناته - الفكرية - فهو المهزوم، حتى ولو لم تَلِن قناة بنادقه وصواريخه.

هناك أداتيتان إذن: الأولى مصلحية دون فكر، يمارسها كل جاهل بالثانية، التي هي الأداتية المسوغة للأولى مع أمثال (جيمس)، أو التي تريد ضبطها - ضبط المصلحية العمياء بالوقائع (Facts)، وباليقين

(١) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١].

العلمي - المنطقي - وهي التي أطلق عليها (بيرس) مصطلح البرغماتية ثم (البرغماتيسية)، بعد أن حرفها (جيمس) وأمثاله من الأداتيين.

وقد ظل الضبط (البرغماتيسي) محصوراً بالأكاديميات الأمريكية، في حين شاعت البرغماتية التي تلائم قلة التعمق الفلسفي بالحقيقة، وهي التي تعربد بكل اتجاه نصف مثقف وأمي بالعالم اليوم، بمناخها الذي قلما يشعر به المفكرون.

وعلى من فتح الباب لهؤلاء بظنون الحقيقة والواقعية فيما يفعلون، شن (برتراند رسل) الهجوم.